تصحيح الامتحان الوطني الدورة العادية 2013 (منهجية السؤال)

لا مفر لوجودنا مع الغير ، هذا الوجود يدفعنا حتما لمحاولة التعرف عليه و دراسة شخصيته قصد إطلاق و إصدار أحكام عليه سواء ظاهريا أو باطنيا ، و السؤال المطروح يفتح آفاقا للمناقشة في صلب الموضوع الذي يتأطر ضمن مجزوءة الوضع البشري في شقها الخاص بالغير ، و في بعدها المعرفي ؛ فهذا الغير أولا يحيل على الأنا الذي ليس أنا (أنا مقابل) و ما لست أنا إياه (alter ego) ، ببساطة هو بمثابة الذات الأخرى أي : ذلك المخالف و المشابه ، القريب و البعيد ، الصديق و العدو ، إنه شبيه بطبيعتي و يقاسمني عالمي (حتى لو كان العالم كله صحراء قاحلة فلا بد أن أبصر خطوات مشيه sa trace) ٠

إننا حقا أمام مفارقة عميقة و تركيبات عجيبة ، الأمر الذي يضعنا أمام مجموعة من التساؤلات بخصوص طبيعة هذه المعرفة و حول السبل المرشدة و المؤدية إليها :

- فهل يمكن معرفته بالاعتماد على ذاتي فقط (بمماثلته بذاتي) أم هناك وسائل أخرى لفهمه أكثر ؟
- و هل معرفته هي فعلا ممكنة أم تظل مستحيلة و افتراضية و مشكوكا فيها ؟

الملحوظ أن السؤال الإشكالي المطروح يستهل ب "هل" و هي أداة استفهامية يطلب بها التصديق و الانتصار لأحد الجوابين ، إما أن المماثلة بالذات هي سبيل لمعرفة الغير أو أن تجربة الأنا تبقى تجربة متفردة خاصة بها و لا يمكن تشبيهها بالغير ، و بالتالي لا تمكنها من معرفته فيستوجب الأمر بذلك البحث عن وسائل أخرى و إلا ستصبح معرفة الغير متعذرة ٠

إن الأنا عندما تنطلق من ذاتها و من تجربتها الخاصة ، و تحاول تعميمها على الغير و ادعاء معرفتها له بحكم كونه يشبهها غالبا ما تفشل في ذلك و لا تحقق أية نتيجة ايجابية ، لأن الانسان على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي غاستون بيرجي يعيش تجربة وجودية حميمية (intimité secrète et douce) و يحيا في عزلة تامة مع نفسه ، فروحه سجينة بداخله و لا يمكن للآخرين اختراق وعيه أو إدراك مكنوناته المحاطة بالأسوار ؛ و خير مثال ذلك تجربة الألم ، فحينما يتألم شخص ما عزيز علينا فإننا نسعى دائما لمواساته و تهدئته و مشاركته ألامه ، غير أن ألمه مع ذلك يبقى بالنسبة لنا خارجيا و برانيا ، و من هنا نستخلص أن معرفة الغير صعبة و ممتنعة ، و ما يزيد من صعوبتها انه لا احد يستطيع أن يحب أو يكره يفرح أو يتألم يموت أو يحيا محل الآخر ٠

و ما يعيق عملية المعرفة هاته هو أن ذاتنا في تقربها من الآخر تصطدم بوجود فراغ و هوة تنبثق على شكل خجل ، تعيشه كل ذات أمام الأخرى و هذا الخجل (la honte) يؤدي إلى تخلي الأنا عن حريتها و عفويتها و تلقائيتها أمام جحيمية الأنا الأخرى (obstacle) ، و ما دام الغير كانسان ليس شيئا بين

الأشياء و لا موضوعا من الموضوعات ، يتمتع بالإرادة و الحرية و الإبداع ، فإن معرفته كوعي تبقى مستحيلة ، و بذلك تتوسع الهوة و يتعالى هذا الغير عن المعرفة و الاكتشاف ؛ و يقدم لنا زعيم الفلسفة الوجودية جون بول سارتر مثالا حيا للنظرة .(je suis prisonnier du regard des autres. L'enfer signifie que ma liberté est aliénée en ce qu'elle dépend des autres, de leurs opinions et sentiments) " فحين أكون وحدي أتصرف بعفوية و حرية و انظم أشياء العالم حول ذاتي معتبرا أنني أنا المركز و أشياء العالم موضوعات لي ، و ما إن انتبه إلى أن إنسانا آخرا يراقبني حتى تتغير الأمور ، حيث أن نظرة الغير قد تسبب لي شعورا بالضيق و الخجل و تفقد ذاتي تلقائيتها و انبساطها " و بذلك ما دام وجود الغير سلبيا لهذه الدرجة : " الجحيم هو الآخرون " ، فالابتعاد عليه أفضل مما يجعله محط إقصاء ، و تنعدم بذلك فرصة التعارف (يظل في رقعة التباس و غموض و تخفي) (Par le regard que pose autrui sur moi, je suis destitué de ma liberté originelle et transformé en objet)

فهل سنفقد الثقة في النفاذ إلى أعماق الغير و بناء علاقات معه و سننسحب من ساحة البحث في حقائقه أم سنتشبث بمهمتنا أكثر فأكثر ؟

إن الغير حاضرا دوما معنا و إلى جانبنا ، و معرفته ليست بالأمر العسير ، على العكس من ذلك إنها ممكنة و سهلة إذا ما اهتدينا إلى التواصل معه و تجاوزنا النزعة الفردانية (le solipsisme) ، و كسرنا النظرات التشييئية اللا إنسانية التي نتبادلها معه ، كما أكد الفيلسوف الفينومينولوجي الفرنسي موريس ميرلوبونتي " يعتقد أن الغير يحولني إلى موضوع و ينفيني مثلما أنا أحوله إلى موضوع و انفيه ، لكن في الواقع لا تحولني نظرة الغير إلى موضوع و لا تحوله نظرتي إلى موضوع إلا إذا احتمى كل منا بأعماق طبيعته الفكرية و إلا إذا تبادلنا نظرة لا إنسانية " . فالأنا و الغير لا تربطهما فقط علاقة مكانية فقط مثل الأشياء بل تربطهما علاقة واعية تخص الانسان كوجود لذاته وجود يتيح للذوات الواعية الحوار و المشاركة و الاعتراف و التواصل الفعلي داخل العالم "البيذاتي" ٠ (l'intersubjectivité – relations interhumaines – situations projetées en commun)

و بالتالي بالإمكان هدم الهوة العميقة التي حدثنا عنها سارتر - في كتابه الوجود و العدم - و بناء جسر للتواصل و التعاطف الوجداني و التعايش معه في الحدود الممكنة ، ففي حالة التعامل مع إنسان مجهول مثلا " لم ينطق بكلمة بعد فبامكانني أن اعتقد انه يعيش في عالم آخر عالم لا تستحق فيه أفعالي و أفكاري أن توجد ، لكن ما إن ينطق بكلمة او يقوم بحركة تنم عن حالة نفاذ الصبر حتى يكف عن التعالي على ذاتي " ، فاعرف صوته و أفكاره و مواقفه و ميولاته ، نفس الشيء اقره الفيلسوفان الفرنسيان فليكس غاتاري و جيل دولوز " إن الغير هو عالم ممكن كما يتبدى في محيا من يعبر عنه ، و كما يحصل عبر لغة تمنحه صورة محققة الغير بهذا المعنى هو مفهوم ذو ثلاثة مكونات متلازمة :عالم ممكن ، وجه قائم الوجود ، كلام او لغة واقعية "٠

لكن في حالة إذا ما تعذر التواصل، أفلا يمكن الاعتماد على وسيلة المماثلة بيننا و بين الغير للحكم على ما يجري في أعماقه ؟ ألا تشبه تجربته في كليتها تجربتنا ؟

ما هو معروف أن إدراك الغير لا يتم بشكل مفصل و مقسم ، بل ندركه في كليته و وحدته الشاملة (Totalité) و هو ما يوافق تصور الفيلسوف الألماني ماكس شيلر ، إذ يشير بأن الآخرين الذين نعيش معهم ليس أفكارهم و لا أجسامهم التي تحددهم ، بخلاف ذلك مجموعات لا تتجزأ ، و لا يمكن فصلها إلى قسمين احدها مخصص للإدراك الباطني (ما هو نفسي) و الاخر مخصص للإدراك الخارجي (ما هو جسدي و ما يتعلق بالصفات الخارجية) ؛ إننا أمام كائن بشري في كليته ، إذ لا يمكن فهم تعبيراته النفسية الداخلية بمعزل عن مجاله الفيزيائي (الفيزيولوجي) ، بمجرد نظرتنا لهذا الاخر و اطلاعنا على عينيه نطلع بشكل تام على نواياه (ا كانت سيئة أم حسنة) و ندرك كذلك فرحه من خلال ابتسامته و خجله من خلال احمرار وجهه و غضبه من اصطكاك أسنانه ، نستنتج في هذا الباب أن هناك صلة وثيقة بين ما هو داخلي و ما هو خارجي ، بعبارة أخرى تكون معرفة الغير ممكنة بالنظر إليه كوحدة بين هذين المستويين و باللجوء لمنهج الاستبطان (l'accès direct aux affections humaines) و الاستدلال بالمماثلة (le raisonnement par analogie)

و في الختام ، يتبين لنا مما سبق ، أن معرفة الغير تتوقف على التوفر على مجموعة من المقومات ، لكنها تظل قضية صعبة المنال (في غاية التعقيد) و نسبية تقريبية (ليست يقينية)إذا ما ربطناها بالمماثلة بالذات ، على اعتبار أن الانسان في تجديد مستمر لشخصيته و تكوين مستمر لآلياته البيولوجية والاجتماعية المتداخلة ، و هذا ما عالجه الفيلسوف مالبرانش في كتابه من البحث عن الحقيقة في توضيحه بأن : " المعرفة التي نكونها عن الآخرين كثيرا ما تكون معرضة للخطأ إن نحن اكتفينا بالحكم عليهم من خلال الإحساسات التي كوناها عن أنفسنا " ، و هو ما يظهر جديا و منطقيا ، إذ أنني قد اشعر بالحرارة عند زيارتي لبعض المناطق من الكرة الأرضية ، غير أن سكانها قد يكونون معتادون عليها ، و قد أرى شيئا كبيرا و هو على العكس من ذلك (اي قد أعاني من مشكل في البصر) ، اي أن حواسنا و إحساساتنا قد تخضعنا و تمدنا بمعطيات خاطئة غير قابلة للتشبيه و التطبيق على الغير و بهذا المعنى لن تكون معرفتنا له سوى معرفة تخمينية افتراضية غير مباشرة ٠

بأية حال فمعرفة الغير ممكنة مهما تعددت طرقها ، فهي توصلنا حتما للتأسيس و للدخول في علاقات تكاملية إنسانية معه (الصداقة ، التآزر، الاحترام ...) في نبذ تام للإقصاء و الصراع و العنف حفاظا على الهوية و الاستقلال و السلم٠

من اعداد: الباحث اشرف مطهر